

المحاضر الخامسة: (مصادر الشعر الجاهلي)

الأستاذ: مولاي عبد المالك الداودي

كانت الرواية الشفوية أهم وسيلة لحفظ الشعر الجاهلي حتى عصر التدوين في نهاية القرن الثاني وأوائل القرن الثالث الهجريين، فقد شرع العلماء المسلمون - ولا سيما في الكوفة والبصرة - بجمع ما حفظ من الشعر الجاهلي على سنة الرواة، ومن ثم تدوينه مخطوطا في ما خلفوه من كتب. وقد أصبحت هذه الكتب بعد ذلك المصدر الرئيس الذي يعتمد عليه العلماء جيلا بعد جيل في رواية الشعر الجاهلي ودراسته.

ومما لا شك فيه أن بعض هذه المصادر قد نسبت إلى الشعراء الجاهليين أشعارا لم يقولوها، وهو أمر قد تنبه إليه العلماء القدماء والمحدثين الذين بذلوا جهودا كبيرة في سبيل إبراز تلك الأشعار الزائفة، من خلال إقامة الحجج والبراهين على زيفها.

وقد تباينت هذه المصادر في روايتها للشعر الجاهلي تبعا للمنهج الذي اختطه مؤلفوها، وقدراتهم على تمييز الصحيح من الزائف، والغرض من جمع هذا الشعر وتدوينه، هو الحفاظ على هذا التراث الزاخر ليجد الباحثون المعاصرون بين أيديهم عدداً من مصادر الشعر الجاهلي التي جاءت عن طريق الرواة الأمناء الصادقين، الذين وقفوا جهودهم على التحري والتثبت، ولم يَخَفْ عليهم وجود شعر جاهلي منحول كشفوا جانباً منه؛ ولقد حازت آثار أولئك الرواة القبول والتقدير، وعُدَّتْ مصادر أساسية للشعر الجاهلي. وأهم هذه الآثار: الدواوين، وتقسم على قسمين:

دواوين القبائل:

الدواوين المفردة:

تتضمن أشعار قبيلة معينة، بما فيها من قصائد كاملة أو مقطعات قصيرة، أو أبيات متفرقة لشعراء تلك القبيلة. إلى جانب ذلك، تتضمن الأخبار والقصص التي تتصل بالشاعر نفسه أو أفراد قبيلته، مما يجعل من هذه الدواوين سجلا لحوادث القبيلة ووقائعها، ومفاخرها ومناقبها. ملاحظ أن أغلب تلك الدواوين قد ضاع واندثر، ولم يسلم منها سوى ديوان الهذليين صنعة أبي سعيد السكري (ت 270هـ) فإن جمع شعر قبيلة بعينها له أهمية كبيرة؛ لأنه يطلعنا على ما لكل قبيلة من خصائص فكرية ولغوية وفنية تتصف بها.

تكمن أهمية الدواوين المفردة في أنها تفيدنا في دراسة شاعر بعينه، والإلمام بجميع تفاصيل شعره والخصائص المميزة له. فجمع أبو عمرو الشيباني مثلا ديوان امرئ القيس وليبيد والأعشى. وجمع الأصمعي ديوان النابغة والمهلل وبشر بن أبي خازم وغيرهم.

المعلقات:

هي تلك القصائد المشهورة التي تمثل قمة ما وصل إليه الشعر العربي في العصر الجاهلي من المستوى الفني، ومثانة الأسلوب، فهي الصورة الناضجة الكاملة التي انتهت إليها تجارب الشعراء الجاهليين في التعبير الأدبي، ومن هنا بلغت شهرتها مبلغا كبيرا غطت ما سواها من الشعر الجاهلي، وصار لقائلها من الذكر والشهرة ما لم يحظ به غيرهم من الشعراء.

ويجمع المؤرخون على أن رواية الكوفة المعروف حماد الراوية (ت 156هـ) هو أول من جمع هذه القصائد ورواها، يقول أبو البركات الأنباري: (وأما حماد الراوية فإنه كان من أهل الكوفة مشهورا برواية الأشعار والأخبار، وهو الذي جمع السبع الطوال)، ومع ما يثار من شكوك في توثيق حماد، واتهامه بالوضع والتزويد في الأشعار، إلا أن أحدا لم يشك في روايته للمعلقات وتوثيقها.

والمعلقات لفظ من ألفاظ عدة، أطلقها الرواة والباحثون على عدد من القصائد الجاهلية المميزة، وقد اختلف الباحثون عبر التاريخ وتعددت آراؤهم في تسميتها وفي عددها وفي أصحابها، فمنهم من جعل المعلقات سبعا، ومنهم من جعلها تسعا، ومنهم من جعلها عشرا وغير ذلك. إلا أن الرأي الراجح أن المعلقات هي سبع قصائد، وأن أصحابها هم (امرئ القيس، وزهير بن أبي سلمى، وطرفة بن العبد، وعنتر بن شداد، وعمرو بن كلثوم، والحارث بن حلزة، وليبيد بن ربيعة).

وعلى الرغم من اختلاف الآراء وتعددتها في سبب تسميتها بهذا الاسم، إلا أن أكثرهم يرجع السبب في ذلك إلى تعليقها في ركن من أركان الكعبة .

ولعل أهم ما يقدح في خير التعليق هو:

+ خلو مصادر القرون الأربعة الأولى بعد الإسلام منه، وظهوره متأخرا في المصادر التالية.

+ خلو أخبار فتح مكة من أخبار هذه القصائد، إذ لو وجدت على جدران الكعبة إبان الفتح لورد ذكرها.

+ إن بعض القصائد وبخاصة قصائد امرئ القيس، كانت تشتمل على فاحش الكلام، مما لا يليق بالعرب أن يعلقوا هذه القصائد في مكان يقصدونه ويحجون إليه.

+ اختلاف رواة الشعر في ضبط أبيات تلك المعلقات، دليل في حد ذاته على عدم صحة التعليق.

الأصمعيات صنعة:

عبد المالك بن قريب الأصمعي الراوية الثقة العالم اللغوي البصري (ت: 216هـ) .

سبب تصنيفها غاية تربوية تهذيبية (تثقيف ولي عهد الرشيد ليعلم ولده الأمين ويؤديه).

تتضمن الأصمعيات (92 قصيدة) بينها عدد من المقطعات

الصغيرة، جل شعرائها من الجاهليين القدماء— إن قصائدها وموزعة على (71) شاعرا.

والأصمعيات أقل شيوعا وعناية من قبل العلماء والباحثين،

- جاء فيها عدد غير قليل من الكلمات المندثرة

- لأنها متأخرة عن المفضليات.

- إن كثيرا من نصوصها كانت قصيرة، أو غير كاملة، فضلا عن أن بعض أشعارها مشتركة مع المفضليات.

- افتقارها إلى سلسلة السند والرواية التي وجدت في المفضليات

- الألفاظ الغريبة فيها كانت أقل مما هو في المفضليات - إن الأصمعي لم يرو كثيرا من القصائد كاملة، بل اكتفى بمختارات منها.

جمهرة أشعار العرب

صنعة أبو يزيد محمد بن أبي الخطاب القرشي (ت في القرن 4 هـ)، راوية مغمور لا يعرف عنه شيء ولا نجد له ترجمة في كتب الأدب.

- تضم المختارة مجموعة كبيرة من قصائد فحول شعر الجاهلية والإسلام تصل إلى تسع وأربعين قصيدة (49).

- تتميز هذه المختارة بـ:

مقدمتها الواسعة التي أفاض فيها مؤلفها الحديث عن:

- أول من قال الشعر - وعن النبي (ص) والشعر

- وشياطين الشعراء - وأخبار بعض الشعراء

- تناثر مصطنع في التقسيم - تتوفر على عدد من القصائد المشهورة التي لا يعثر عليها في مصدر آخر.

مختاراته.

المفضليات صنعة:

المفضل الضبي الراوية الثقة الكوفي المشهور (ت: 168) أقدم مختارات الشعر العربي التي وصلت إلينا مما صنف في القرن الثاني الهجري.

سبب تصنيفها غاية تربوية تهذيبية بتوجيه من المنصور) عدد القصائد (130 قصيدة)، وقد تزيد أو تنقص ولها

مميزات عدة منها:

رويت بتمامها. فلم يعمد المفضل إلى

الاختيار والتفضيل بين أبيات القصيدة الواحدة.

المهجورة ويعود ذلك لعدة أسباب منها:

التي قد لا نجدها في المعاجم اللغوية.

- إن اسم مؤلفها كان موضع احترام من الآخرين. إذ لم يطعن أحد من معاصريه أو ممن جاء بعده في أمانته وصدقه.

- إنها لا تضم من الأشعار إلا ما كان قديما. فقد تضمنت شعر سبعة وستين شاعرا (67)، منهم سبعة وأربعون جاهليا (47). وأربعة عشر مخضرا (14)، وستة من العصر الإسلامي.

كتب الحماسة

تعد كتب الحماسة رافدا مهما من روافد الشعر التي يستطيع من خلالها الباحثون الوقوف على أغراض الشعر واتجاهاته، ومعرفة الجوانب التي عالجها الشعراء، ولاسيما الذين ضاعت دواوينهم أو عرفوا بالمقلين أو المغمورين؛ لأن هذه المجاميع الشعرية قد تضمنت قصائدهم المفردة، ومقطعات أشعارهم التي لم تقف عليها كتب الأدب أو تشير إليها مجاميع الشعر.

وتختلف كتب الحماسة عن المجموعات الشعرية الأخرى بأنها لا تثبت القصائد المختارة بتمامها، وإنما تعنى أكثر ما تعنى بالمقطعات والأبيات القليلة تختارها من المطولات، أي أنها تُحكم الذوق في الاختيار، فضلا عن أنها تراعي التبويب لهذه النصوص المختارة بحسب المعاني أو الأغراض الشعرية المشهورة، وقد سميت بالحماسات لغلبة هذا الاسم عليها.

حماسة أبي تمام:

تعد حماسة أبي تمام (حبيب بن أوس الطائي، ت 231هـ) من أكثر الحماسات قيمة، وأغزرها شعرا، وقد سمي الكتاب بالحماسة؛ لأن أول أبواب الكتاب كانت أشعار الحماسة، لذلك سمي الكتاب باسم هذا الباب . استخدم أبو تمام ذوقه الفني وحسه الشعري في الاختيار، وعني عناية خاصة بشعراء طيء فكان لهم النصيب الأوفر في الاختيار .

أما أبواب الكتاب فهي عشرة (الحماسة، المراثي، الأدب، النسيب، الهجاء، الأضياف والمديح، الصفات، السير والنعاس، الملح، مذمة النساء) ، وهي تضم (881) قصيدة ومقطعة موزعة على مئات من الشعراء الجاهليين والإسلاميين، ليس فيهم من المحدثين المعاصرين له إلا العدد الضئيل، كما اشتملت على أشعار كثيرة لشعراء مغمورين ومجهولين، فضلا عن اشتمالها على روائع شعرية لا نجدتها في الدواوين التي بين أيدينا أو المجموعات الشعرية التي سبقتها .

وقد أُخذ على أبي تمام أن أبواب الكتاب كانت غير متناسقة الطول، فضلا عن أنه كان يغير بعض النصوص ليستقيم له الربط بين الأبيات، وقد أكد المرزوقي (ت 421هـ) هذه الحقيقة في شرحه، وهناك كتاب اختيارات آخر لأبي تمام هو (الحماسة الصغرى) أو (الوحشيات).

حماسة البحتري :

يمتاز هذا الكتاب بأنه من صنع شاعر كبير مرهف الذوق، يعرف كيف يميز الشعر الجيد من رديئه، هو أبو عبادة الوليد بن عبيد البحتري (ت 284هـ) ، تلميذ أبي تمام، فكان معجبا به، حتى حذا حذوه في الاختيار، وإن خالفه في عدد الأبواب الشعرية، فأبو تمام قد صنف كتابه في عشرة أبواب، أما البحتري فقد صنف كتابه في (174) بابا؛ وذلك لأنه عني بالمعاني الجزئية أكثر من عنايته بأغراض الشعر الرئيسية .

يمتاز الكتاب بأنه أدق تبويبا، وأشد إسعافا للباحث عما قيل في معنى من المعاني الشعرية الصغرى، أكثر من حماسة أبي تمام، إلا أن ذلك دفع البحتري إلى اجتزاء القصائد والاكتفاء بالمقطعات القصيرة والأبيات المفردة (بيت أو بيتين)، أما حماسة أبي تمام فمقطعاتها أقرب إلى التمام وتصوير واقع الشعر القديم؛ لأن هم المؤلف في الموضوع العام لا في المعنى الجزئي، لذلك نالت شهرة أكثر مما نالته حماسة البحتري . وهناك كتب حماسات أخرى منها : حماسة ابن الشجري لمصنفها أبو السعادات هبة الله بن علي الشجري (ت 542هـ)، والحماسة البصرية لمصنفها صدر الدين علي بن أبي الفرج البصري (ت 659هـ) ، وغيرها.

* كتب الأدب، واللغة، والنحو: كالبيان والتبيين، والحيوان، ومجالس ثعلب، وعيون الأخبار، والكامل،

والأمالي. وكذلك بعض كتب المتأخرين التي احتفظت بكثير من الأشعار الجاهلية التي ضاعت أصولها:

كخزانات الأدب، وشرح أبيات مغني اللبيب، وكلاهما للبغدادي، وشرح شواهد المغني للسيوطي.

* الكتب النقدية البلاغية: كالמושح، والصناعتين، والموازنة والوساطة.

* كتب التراجم والطبقات: كمعجم الشعراء، والمؤتلف والمختلف، وطبقات ابن سلام، والشعر والشعراء،

والأغاني

فهذه المصادر وأمثالها، تجعل بين أيدينا مادة وافرة للشعر الجاهلي، وهذه المادة غنية وكافية، لكي تهيئ للدارسين مجالاً واسعاً للبحث والتحليل والموازنة، في رحاب أغراض ذلك الشعر وفنونه المختلفة.